المرجعيات الفكرية للمدرسة الرومانتيكية

د. علي شريف الصرايفي

الرومانتيكية : هي حركة فنية اوربية ظهرت في القرن التاسع عشر ١٨٢٠-١٨٣٠ في قارة اوربا كلها ، ففي فرنسا برز كل من جيريكو وديلاكروا وفي المانيا ميشيل فريدريك وفي انكلترا كونستابل وتيرنر وفي اسبانيا فرانشسكو جويا وهكذا ، وتعتبر من الحركات الفنية الاولى التي لظهور الحركات الفنية المعاصرة فيما بعد ، سيما بعد افول نجم الكلاسيكية المحدثة والتي لمع نجمها في اوربا منذ القرن السابع عشر الميلادي .

لذلك عدت الرومانتيكية بمثابة احتجاج كبير وردة فعل على التقاليد الكلاسيكية البالية انذاك ، سيما ما تميزت به الكلاسيكية الجديدة من تقاليد بالية من مبالغة في تضييق الحريات واستبدادها في تغييب الخيال من خلال التعاليم الاكاديمية الصارمة مثل نبل الموضوع وسمو المعاني وصرامة الخطوط ، فولدت بذلك فن يعاني من الفراغ العاطفي والتمسك بالتقاليد البالية الجامدة

ولكلمة الرومانتيكية اصل فرنسي قديم وهو رومان (Roman) كان يشير في القرون الوسطى الى قصة من قصص المخاطرات او ما يثير في النفس ماهو متصل بها ، وفي الالمانية (romantisch) ومعناها ما يمت بصلة الى عالو الفروسية في القرون الوسطى او مايثير ذكراه . ثم انتقلت هذه الصفة الى الفرنسية (Romantique) اولا في ادب روسو (شطان بحيرة وحشية رومانتيكية اكثر من شطان بحيرة جنيف لان الصخور والغابات اكثر متاخمة للماء) ، ثم اخذت هه الكلمة تطلق على المناظر الشعرية والحوادث الخرافية والقصص الاسطورية . (غنيمي هلال ص: ٥-٦) ويرى الدكتور علي شريف ان هذه النواحي الاصطلاحية في كثير مما خلفه الفنانون الرومانتيكيون من اعمال فنية غاية في الروعة ، فعالم الفروسية الذي ينطوي عليه مصطلح الرومانتيكية موجود وبشكل واضح في اعمال ديلاكروا والتي تضمنت مشاهد الفرسان والخيول سيما تلك التي صورت في المغرب العربي ، وكذلك في القصص التاريخية كما هو الحال في لوحة موت الملك سردانابال ، كذلك مشاهد تتضمن موضوعات من القرون الوسطى والمشاهد الاسطورية والشعرية والبحيرات المتوحشة كما هو الحال في لوحة (موت اوفيلي) ، اوجانب القصة ونحو ذلك نجده مثلا في لوحة طوف الميدوزا للفنان جيريكو .

المرجعيات الفكرية للمدرسة الرومانتيكية :

١- نظرية الالهام الافلاطوني : (الفنان هو رجل الالهام الذي يدرك من الاشياء ملا يدركه عامة الناس ، وان الفن هبة مقدسة جاءت الانسان من العالم السماوي . (زكريا ابراهيم ص : ١٤٥)

٢- النظرية الافلاطونية الجديدة (افلوطين) : توطيد دعائم الفكرة الصوفية في الفن ، ونظرية الفيض (القره غولي : ص ٢٧)

٣- حركة الفن للفن هي من الحركات المرتبطة بالفن الرومانتيكي ، وان مشروعية هذه الحركة (الفن للفن) مستمدة من دعوة الشاعر بودلير ، وهي احتجاج على مبدأ النفعية في الفن وما هو سلبي وقد كان ذلك قبل الرومانتيكية

٤- دعوات جان جاك روسو الهمت بعض الفنانين الشباب في الخروج الى الطبيعة وحرية التعبيروالانطلاق نحو الخيال والنزوع الى الوجدان .

٥- المنطق الديكارتي : (انا اشعر اذن انا موجود) كان له تاثير فكري مباشر.

٦- **ذكر هيجل ان بدايات الفن تتميز بميل نحو الخيال والى محاولة الانفلات من اسر الطبيعة لكي يتجه الى الروحية** ، وان هذا الامر ماهو الا محاولة يبذلها الروح الذي لم يكن قد وجد المضمون الحقيقي الواجب اعطاؤه للفن ، والذي وجد نفسه مضطرا الى الاكتفاء بالاشكال الخارجية على المدلولات الطبيعية وهذا ما لمسناه في الفن الكلاسيكي ، ان ارتقاء الروح هذا نحو ذاته وهو الارتقاء الذي بفضله يجد في ذاته الموضوعية التي كان مضطرا حتى الان الى طلبها في العالم الحسي والخارجي ، والذي بفضله يكتب الوعي والشعور باتحاده مع ذاته ، ان هذا الارتقاء يشكل المبدأ الاساس في الفن الرومانتيكي ، وبهذا المبدأ يرتبط بالضرورة بمبدأ اخر مؤداه : **ان جمال المثال الكلاسيكي ، وبالتالي الجمال في شكله الاكثر مطابقة للمضمون المطلوب التعبير عنه ، لايمثل الهدف الاسمى والغاية الاخيرة للفن الرومانتيكي وذلك ان الروح في المرحلة الرومانسية يعرف ان حقيقته لا تتمثل في الغوص في الجسماني ، بل على العكس فهو لايعي حقيقته الا بانسحابه من الخارج ليرجع الى ذاته ، انه يصير جمالا روحيا صرفا ، جمال الداخلية بما هي كذلك ، جمال الذاتية اللامتناهية والروحية في ذاتها** .(هيجل . الفن الرومانسي : ص : ٣٣٣)

٧- الرومانتيكية تمثل ايضا احتجاجا متحمسا ومتناقضا على الرأسمالية البرجوازية ، وعلى كل ماهو تافه ومتجهم في دنيا الاعمال والارباح . ومما لاشك فيه ان الرومانسية قد شقت طريقها نحو ماهو وحشي وغريب متجهة صوب الافاق التي لا تحدها حدود ،

الا انها مع ذلك كانت ترجع بالمرء الى شعبه والى ماضيه والى طبيعته الخاصة ، ويلاحظ ان اغلب الرومانتيكيين البارزين كانوا معجبين بشخصية نابليون الغير محدودة . الا ان الرومانتيكية ارتبطت في ذات الوقت بحركات التحرر الوطنية . ففي ايطاليا قام فوسكو باستقبال نابليون بنشيد (الى نابليون بطل التحرير) ، وفي عام ١٨٠٣ م تقدم الى نابليون بطلب اعلان استقلال الجمهورية الايطالية . الا ان نابليون رفض الطلب فانقلب اخر الامر شديد الكراهية لنابليون الفاتح . كذلك شعر ليوباردي بالمرارة وخيبة الامل ازاء نابليون فكتب في احد قصائده اذ يقول :

السلاح اعطوني السلاح

وحدي سوف اكافح ، وحدي سوف اموت

ولتتعطف السماء وتجعل دمي

مبعث الهام لقلوب الايطاليين

ونلاحظ فيما تقدم من الابيات الشعرية ان الشاعر سيكافح المستعمر وحده وفي ذلك اشارة واضحة الى نزوح الرومانتيكي الى عالم الذات . ان تعالي الرومانتيكي على الجماهير لا يعني انه ضدهم بوصفهم عامة الناس ، لان شغلهم الشاغل هو العطف على مظلوميهم والقيام بثورة من اجلهم ، فالعبقرية لا يلائمها ان تنغمس في سواد الناس . (هلال غنيمي . ص : ٦٣)

لقد اضحى المضمون وفق مقتضيات الفن الرومانتيكي يختلف عن المضمون وفق مقتضيات الفن الكلاسيكي وذلك من خلال شروعه بالتعبير عن عالم الذات والوجدان فضلا عن اطلاق العنان للخيال . ويذكر هيجل بهذا الخصوص " يتكون المضمون الحقيقي للفن الرومانسي من الداخلية المطلقة ويتكون شكله المطابق من الذاتية الروحية الواعية لاستقلالها وحريتها . وهذا اللامتناهي وهذا الكلي الموجودان في ذاتهما يشتملان على موقف سلبي مطلق ازاء كل خصوصية ، على توافق بسيط مع الذات لايعرف كل انفصال وكل سيرورات الطبيعة مع تعاقب الولادة والاضمحلال والانبعاث ، وكل تحديد للحياة الروحية " هيجل . الفن الرومانسي : ص ٣٣٥)

العوامل التي ادت الظهور الرومانتيكية

١- ان العصر الذي ظهرت فيه الرومانتيكية وماتميز به من خصائص اجتماعية وسياسية ، فكان عصر بمثابة زلزلة في القيم وتبدل في الطبقات الاجتماعية واستخفاف بالمبادئ القديمة ، وجهود ترقى الى للتحرر السياسي والفكري واثر الثورة الفرنسية ، كذلك على المجتمعات في اوربا حيث تميزت تلك الثورة بافكار جديدة

٢- هناك عوامل ادبية ساعدت على ظهور الرومانتيكية مثل اكتشاف شكسبير في قارة اوربا وما تميزت به من منحى رومانتيكي حيث ظل مجهولا لاكثر من مئة عام (هلال ص: ٢٣)

٣- عدم الصدق في تطبيق مبادئ الثورة الفرنسية في الحرية والاخاء والمساواة

٤- الشعور بالقلق الروحي العميق في عالم ليس بوسع الفنان ان يشعر فيه بالاستقرار

٥- عدم وجود مكان للعاطفة في العمل الفني الكلاسيكي

٦- سلب حرية الفنان وذاتيته وانفعالاته من قبل الكلاسيكيين

٧- تغييب الخيال من قبل الكلاسيكيين

الخلاصة :

اوجدت الرومانتيكية في الخيال الحر قيمة حقيقية يشعر الانسان بها ، لكن هذا الخيال الحر الطليق الخالي من كوابح الحس تماما كما يحدث للنسان عندما يكون في لحظة الحلم وهذا الشعور لا يدركه الا الصوفيون

الرومانسية سعت الى نبذ النسبي والتعلق بما هو جليل وسامي ولامتناهي ، ولذلك اعتمدت مبادئ اساسية وهي الحرية الذاتية والفردية ما ادى ذلك الى تمرد على كل مايعيق الحرية وهذا هو نقيض لكل التيارات الكلاسيكية

والرومانسية تمثل لحظة تعارض مهمة بين العقل والوجدان وهي ساهمت في زيادة الهوة بين قيود المنطق واللامنطق و الذهاب الى التلقائية ، وهذه المدرسة اوجدت من الحدس

الرومانسية في اعتمادها الخيال سعت الى الهروب من الواقع للوصول الى الفردوس الافتراضي وهذا مايفسر روح التعالي التي امتازت بها هذه المدرسة